الأمير عبد القادر من مؤسس لدولة وطنية إلى راعٍ للتعايش الديني.

د. ة. قدور نورة.
المركز الجامعي نور البشير، البيّض، الجزائر.
مخبر الفلسفة وتاريخها، جامعه وهران 2.
البريد الإلكتروني: *Leonnourakaddour62@yahoo.com*

تاريخ الإرسال: 07/ 08/ 2018؛ تاريخ القبول: 16/ 11/ 2018.

الملخص:

من أبرز الشخصيات التي تصدت للاستعمار الفرنسي بالجزائر الأمير عبد القادر الجزائري من خلال مبايعته من طرف القبائل التي كانت تقطن بالغرب الجزائري، فناضل من أجل تحقيق الحرية والحفاظ على الشخصية الجزائرية وقيمها الإسلامية بكل السبل ولكن رغم تأسيسه للدولة الجزائرية بكل أجهزتها العسكرية والاقتصادية والسياسية، لم يسعفه الحظ في القضاء على الاستعمار مما أضطره لمغادرة البلاد مستسلمًا لأحكام فرنسا، ليقضي فترة من الزمن بسجون فرنسا ثم يرحل إلى دمشق ليعيش المنفى الاختياري، ويؤسس لقيم التعايش والسلم بها مع فتنة دمشق 1960 وحاولا إنقاذ المسحيين الذين باتوا يعانون من الاضطهاد من طرف بعض المسلمين بتجنيده رجاله المغاربة وسعيه الدءوب لحل الأزمة وبما تلقاه من شكر من دول أجنبية راعت مسعى الأمير في ذلك.

الكلمات المفتاحية: الدولة؛ التعايش الديني؛ الاستعمار؛ التسامح؛ السلم.

Abstract:

EL EMIR ABDUL QADIR FROM THE FOUNDER OF A NATIONAL STATE TO THE HERDSMAN OF RELIGIOUS COEXISTENCE

EL Emir Abdul Qadir is the most prominent figures who wrestled against French colonialism in Algeria through his allegiance to the tribes that lived in the west of Algeria. He struggled to achieve freedom and preserve the Algerian personality and its Islamic values by all means. But despite its establishment of the Algerian state with all entire military, He did not succeed in eradicating colonialism, forcing him to leave the country, surrendering to France. He spent a period of time in the prisons of France and then went to Damascus to live in exile. There, he faced a crisis of the values of coexistence and peace in 1960 and tried to rescue the Christians who have been suffering from oppression of some Muslims by recruiting his Moroccan men and his strenuous efforts to resolve the crisis. Consequently, he received the thanks from foreign countries took into account his endeavor.

Keywords: State; religious coexistence; colonialisme; tolérance.

منذ تاريخ (5جويلية1830) والجزائر تعاني الاستعمار الذي استوطن بلدها وطمس قيمها الروحية والوطنية والدينية أبشع طمس، فباتت تعاني ويلات هذا الاستعمار من انهيار اقتصادي وتخلف وفوضى والاضطراب السياسي، ومن ذلك التاريخ أظهر الشعب الجزائري مقاومته ورفضه لهذه الأوضاع المزرية، ومن أبرز الشخصيات التي تصدت لذلك الأمير عبد القادر الجزائري والذي لا تسعه الجزائر فقط بل يمتد في المكان ليتسع لبلاد المغرب والمشرق، ويمتد في الزمان ليعانق القرن التاسع عشرة .

وقد بزغ نجم الأمير بدمشق منذ دخوله لها واستقبله أهلها صغارًا وكبارًا وأحبه علمائها ومصلحيها وكانت مجالسه عامرة بالعلم والذكر والمناظرة،

وكان أثره العميق بهذه المدينة التي أحبها مع فتنه(1860) دمشق التي تبرز رجلاً جريئًا وعقلاً راجحًا، وهذا ما يبرز قيمة أخلاقية تحاول الجمع بين الديانات المختلقة والعروق المتعددة في شكل مفهوم جديد يعرف بالتسامح الديني يجد صداه فيما بعد في الفكر الفلسفي الغربي المعاصر بعد أن نحته الإسلام بما جاء به من قواعد الدينية ومن خلال ما سنه وفعله الرسول الكريم ،وما مارسه الخلفاء من قيم تسامح مع الشعوب الأخرى سواء التي كانت تجاورهم، أو التي فتحوا بلادها، وما مارسه الأمير عبد القادر من سلوك التسامح وفقًا لمرجعيته الإسلامية والعربية.

مع تصاعد التعصب واللاتسامح في العالم بين الشعوب المختلفة الأعراق والأديان نُحث مفهوم التسامح تدريجيًا، فاكتسى بالصبغة الدينية اللاهوتية في بداياته، ثم تدرج ليلبس حلة سياسية ومدنية، متخذًا دلالات متعددة نحوية ولسانية، واقترن بالاحترام والاعتراف المتبادل بالآخر ومعتقداته، ومن هنا تندرج ورقتنا هذه طرح العديد من التساؤلات التي تحاول الجمع بين شخص الأمير عبد القادر والتسامح ومن هو الأمير عبد القادر الجزائري وكيف قام على بناء دولته: وكيف رحل بعيدًا عنها للمنفى ويؤسس لحضوره عند الآخرين بفكره وعلمه ؟ كيف أسس الأمير عبد القادر لقيم التسامح بين الأديان ؟ وكيف يتحول من مؤسس لدولة بمعناها السياسي إلى راع للقيم الإنسانية ؟ كيف تتجلى لديه قيم التسامح، وينظر للآخر المخالف له عرقًا ودينًا؟ وكيف فض النزاع الديني في بلاد الشام ؟

وقبل الاستفاضة في الموضوع لابد من تحديد مفهوم التسامح وكيفية ظهور هذا المفهوم.

التسامح(Tolérance) لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور: سمح، السماح، السماحة، المسامحة، وتعني لغة الجود إذ جاد وأعطى بكرم وسخاء،

وأسمح وتسامح وافقني على المطلوب، والمسامحة هي المساهلة(ابن منظور، 1303 هـ : 250).

تسامحوا: بمعنى تساهلوا، والاسم السماح ومنه قولهم: السماح رَبَاح أي المُسَاهلة تُربح صاحبها(أحمد. ر، 1959 :204).

اصطلاحًا: يقصد بالتسامح الحق في الاختلاف، وجاء في الموسوعة البريطانية هو السماح بحرية العقل والحكم على الآخرين(مراد. و، 2007: 185).

يعرف (كارل بوبر) التسامح بأنه: موقف أخلاقي وعقلي ينبع من الاعتراف من أننا غير معصومين عن الغلط ونحن خطاؤون، ونحن نغلط طوال الوقت وقد أكون أنا على غلط وأنت على صواب، وبالحوار العقلاني نقترب من الحقيقة (رمضان. ت، د.ت: 2، 13).

التعايش (**coexistence**) :

لغة: ورد في المعجم الوسيط التعايش على الألفة والمودة وعايشه عاش معه، والعيش معناه الحياة وما تكون به من مطعم ومشرب ودخل (مجمع اللغة، 1998: 639 /640).

اصطلاحًا: يقصد به القبول بوجود الآخر والعيش معه جنبًا إلى جنب من دون السعي إلى إلغائه أو الإضرار به سواءً كان فردًا أو حزبًا سياسيًا أم طائفة دينية أم دولة مجاورة أو غير ذلك ، مما يدل على مجتمعات متكاملة يعيش فيها الناس من مختلف الأعراق والأديان والأجناس منسجمين مع بعضهم البعض دون فتل أو اعتداء (أنطونيا نسايز، 2006 :29).

ويصنف مفهوم التعايش على ثلاث مستويات: أولها المستوى السياسي الإيديولوجي بمعنى الحد من الصراعات السياسية (مثلا الحرب البارد بين المعسكرين)، وثانيها المستوى الاقتصادي وما يضمن التعاون التجاري والقانوني والاقتصادي بين الدول، وثالثها المستوى العقائدي والحضاري وهو محل اهتمامنا وليس التعايش بين الشعوب فقط بل التعايش الديني بين أفراد المجتمع الواحد المختلفين في الدين.

إذ يطلق مفهوم التعايش الديني بين الأديان على مبدأ عظيم هو الاعتراف بحقوق وحرية الآخر في اعتقاد ما يعتقد بأنه حق ولذا لابد من وجود علاقة تربطنا مع أهل الأديان مبنية على التسامح (فوزي، ف. 2008: 67).

ويمكن الإشارة أن مفهومي التسامح والتعايش يتمثلان بالتشابه، وإن كان التسامح يعد أفضل وسيلة لإنهاء الصراعات وتجنبها وبعده يقوم على أسس براغماتية، دون عده انه قيمة في حد ذاته أو يعتمد على قيم قوية، ويكمن الخلاف في دوافع وأهداف وموضوعات التسامح، ويبقى التسامح فضيلة منشودة مثلها مثل التعايش الديني الذي بات يلقى صداه في الفكر المعاصر.

الاستعمار (colonisation):

لغة: يقال استعمر المكان جعله يعمره: أذن له في عمارته، وفي التنزيل: واستعمركم فيها: جعلكم عُمارها (أحمد رضا، 1960: 203).

أما اصطلاحًا: هو ظاهرة سياسية واقتصادية وعسكرية، وهو نهب وسلب منظم لثروات البلاد المستعمرة، فضلاً عن تدمير تراثها الحضاري والثقافي (الكيالي، ع. د.ت :172).

الاحتلال (occupation):

لغة: جاء في المعجم الوسيط الاحتلال يقصد به استيلاء دولة على دولة أخرى قهرًا.

اصطلاحًا: يقصد به وضع ناجم عن احتلال جيش دولة ما لأراضي دولة أخرى، وما يستتبع ذلك من ظروف خاصة تزول فيها سلطة الحكومة الشرعية للبلاد المحتلة (الكيالي، ع. د.ت : 82 :83).

الاستيطان (colonisation):

يقصد به اتخاذ بلد ما موطنًا ،أو إعمار الأماكن المهجورة ،أو البحث في استيطان الجماعات البشرية كرة الأرض من حيث علاقاتهم بالبيئة الجغرافية، أو توزع الإنسان في رقعة الأرض(الكيالي، د.ت :182).

يعتبر الاحتلال المرحلة التي تلي الغزو وتعني استيلاء المستعمر على الأراضي والممتلكات والتحكم فيها، في حين أن إن عملية الاستيطان كانت مشروعا أوروبيا أكثر مما كانت مشروعا فرنسيا حيث قامت على شعار (ليكن الاحتلال فرنسيا، لكن الاستيطان يجب أن يكون أوروبيا)، وعمل الاستعمار الفرنسي على إيجاد شعب فرنسي بالجزائر من خلال تشجيعه لحركة الاستيطان بعد مصادرة الأراضي التي سهلت عملية إقامة القرى الجديدة في شكل مستوطنات ساعدت على استغلال واستثمار الأرض بما يخدم المصلحة الفرنسية والمستوطنين. أما الشعب الجزائري (السكان الأصليين للبلاد)، فقد أخضعته لمجموعة من القوانين الاستثنائية شديدة القسوة والاضطهاد (قانون الأهالي)، وتجريده من المقومات شخصيته وأرزاقه وممتلكاته.

وقبل أن نتناول حياة الأمير وكيف أسس دولته ودعا للتسامح سوف سنعرج على حضور مفهوم التسامح تاريخيا في الفكر الإنساني.

لقد تحدثت البوذية عن التسامح مع بوذا واعتبرت: «التسامح يعني أنك تجاوزت حاجات الجسد وتخطيت كل الحواجز النفسية، يعني أنك تحررت من حاجات الجسد، وأصبحت سيد نفسك، وهكذا صرت تتصرف بوعي، غير خاضع لقوى خارجية هي تحدد قرارك، أنت حر التصرف بكل طاقاتك، وهكذا صار بمقدورك تحويل الشغف إلى عطاء، الشغف طمع، والعطاء مشاركة، الشغف يدعوك لاستغلال الآخرين، والعطاء يدعوك لاحترامهم وتحول في مسار طاقاتك (أشو، 2011: 5).

كما سجل التسامح حضوره في الفكر الإسلامي من خلال القيم التي دعا إليها الرسول الكريم ﷺ وجاءت به الآيات القرآنية من دعوة للتسامح والتعايش مع الأديان المختلفة في عديد المواضع وأقر بوجود الغير المخالف لنا ويعترف بشرعية ما لهذا الغير من وجهة نظر ذاتية في الاعتقاد والتصور والممارسة تخالف ما ترتئيه شكلاً ومضمونًا ويكفي أن نعلم أن الإسلام سمى الشرك دينًا على الرغم من بطلانه، ولا لشيء أنه في وجدان معتنقيه دينًا(ميشال .ح، 1961: 159).

والعديد من الآيات أقرت التعايش السلمي وحوار الأديان كقوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)(سورة النحل، الآية: 125).

وقوله أيضًا :(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)(سورة الأنعام، الآية: 108).

كما أن صدر الإسلام الأول شهد المعاملات الطبية بين المسلمين وأهل الأديان الأخرى بما أقره وسنه الرسول الكريم وما مارسه الخلفاء الراشدين من

ممارسات تقر بالآخر المخالف لنا بكل موضوعية، ولا يسع الناظر فيها إلا الإقرار بأنها مبادئ التسامح الديني في أعمق معانيه.

أما عن الفكر الغربي يمكن أن نؤكد أن الجذر اللاهوتي لمفهوم التسامح عند «أوغسطين» الذي نقله عنه الراهب «مارتن لوثر» ومفاده الصبر على المارقين من الدين وانتظار عودتهم إلى جادة الصواب والدين الحق، وأكد أن السبيل الوحيد لخلاص الإنسان هو الإيمان والاحتكام إلى سلطة النص الديني، والمسيحيون كلهم بحسبه رجال كنيسة، لأن الكنيسة اجتماع أو مؤسسة مكونة من المسيحيين كلهم وليست جهازًا مغلقًا، وكانت المقدمات الأولى لإرهاصات التسامح قد بدأت في دوائر مختلفة كمرسوم «نانت Nante »بفرنسا الذي جاء كمحاولة لإنهاء الحروب الدينية الطاحنة التي عرفتها البلاد، وجاء قرار«أمبواز» (1562):« لا يجوز إكراه الضمائر، أيًا كان السبب هذا هو المبدأ الأساسي الذي سنراه ينتشر في فرنسا ابتداءً من عهد شارل العاشر » (جوزيف. ل، 2009 :519)، ومعاهدة الديانة في الأراضي الواطئة، وإعلان التسامح في انجلترا، ليأخذ المفهوم بعدًا فلسفيًا وسياسيًا مع رسالة التسامح ل«جون لوك» ومع فلاسفة القرن الثامن عشر.

أ - الأمير عبد القادر وتأسيس دولته:

1 -مولده ونسبه: هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى، بن محمد بن مختار، بن عبد القادر، يتصل بنسبه إلى علي بن أبي طالب (محمد، ع. 1964 : 923)، ولد بيوم الجمعة بتاريخ 23 رجب 1122هـ الموافق لشهر أيار1807 م، وكان الأمير يفضل في كنيته الجزائري نسبة إلى بلده وخاصة بعد نفيه(زكريا، ص. 1964 :53).

ومكان ولادته منطقة (القيطنة) بسهل (غريس) كما اختطها جده "مصطفى"، بالقرب من مدينة معسكر، لقد كان لأسرته دورًا سياسيًا بارزًا، ولقد نشأ نشأة دينية في بيت ينتمي إلى الطريقة القادرية، فاطلع على علوم اللغة والتفسير والفقه، وحفظ القران ودراسة الحديث ...مما ينم عن نبوغه وتفوقه(جرجس زيدان، 1910: 182).

2 -مبايعة الأمير:

لقد كان للخلال التي تمتع بها الأمير والمحاسن الطيبة، الرغبة الملحة للشعب الجزائري لتقديم البيعة له بعد أن اعتذر والده عن الإمارة لوهن عظمه وكبر سنه(عبد الرحمان، م. 2010: 283)، فبايع الأشراف والعلماء والأعيان يومئذ ابنه عبد القادر يوم (27/11 /1832) وأمر مجلس العلماء أن يكاتب رؤساء القبائل ليحضروا للبيعة وجاء نصها كالتالي: « ...اعلموا يا معشر العرب والبربر أن الإمارة الإسلامية والقيام بشائر الملة المحمدية قد آل أمرها الآن إلي ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين وجرت مبايعته على ذلك من العلماء والأشراف والأعيان ومعسكر، وصار أميرًا علينا ومتكفلاً بإقامة الحدود الشرعية وهو لا يقتفي آثار غيره ولا يحذو حذوهم ولا يخصص لذاته مصاريف زائدة عن الحاجة كما كان الغير يفعله، ولا يكلف الرعية شيئًا لم تأمر به الشريعة المطهرة ولا يصرف شيئًا إلا بوجه الحق، وقد نشر راية الجهاد وشمر عن ساعد الجد لنفع العباد وعمران البلاد..» (عمار، ع. د.ت :300)، ومن هنا استقر الأمر للأمير وأصبح السلطان الشرعي للبلاد، حيث أن سلطته لم تكن عن طريق الوراثة أو التعيين، وإنما عن طريق الانتخاب والشورى وهي بيعة عن رضا الأهالي، وبذلك تعتبر سلطة الأمير سلطة شرعية قانونية (مياسي، ا. 2007: 34).

3 -بناء الدولة:

بمجرد مبايعة الأمير عبد القادر شرع في بناء الدولة الجزائرية الفتية على أسس إسلامية مستمدة قوانينها من القرآن والسنة على حسب المذهب المالكي(عمار، ع. د.ت:301)، وفي الوقت عصرية شورية تستمد قوتها وشرعيتها من الشعب قولاً وفعلاً، وأدرك للوهلة الأولى أن النظام والاستقرار والأمانة هي الدعائم الأولى لبناء صرح الدولة الفتية، ولمواصلة الجهاد، ولن يتم ذلك إلا جميع جماهير الشعب المتفرق حول نضاله.

كان أول ما سعى إليه الأمير في بناء دولته هو تجنب أخطاء الماضي مثل أخطاء الحكم العثماني وما سببه من كراهية الشعوب له، وسعى بناء دولة أساسها إخلاص وثقة المحكومين(أديب، ح، 1983 :40)، الثقة المتبادلة بين الراعي والرعية، وألقى بكل ثقله في ميدان الاستشهاد، لا تعرقل انطلاقته أموال مخزونة، ولا يجذب نظره إلا بريق السيف (عبد الرزاق، س. 2000: 25).

واستند الأمير على خبرته المستقاة من رحلاته، وخاصة ما حققه (محمد علي) بمصر، فاهتم بالإمارة تعميرها وتحديثها، وبدأ بتشييد الحصون والقلاع وبناء المصانع، واهتمام بأهل العلم وإكرام أهله فحرص على اختيار معاونيه، وكيف ولا وهو العالم الفقيه الذي يدرك ما للعلم من مكانة في عصر كعصره لإقامة حديثة قوية لا تزول بزوال الرجال.

عمد الأمير على تنظيم الجيش، وفق الجيوش الحديثة، وتقسيمه إلى مشاة وفرسان ومدفعية، مستعينًا بضباطٍ من التونسيين والفارين من الجيش الفرنسي والمجندين لدى الأتراك، كم اختص بنظام في اللباس والمأكل والرواتب والتعليم والترقية، وأعد معالم السلاح والذخيرة والمُؤن، وقام على ترميم القلاع ولم يغفل على شيء مما يلزم الحكومات وبناءها(نزار، أ. 1994: 12).

وجاء في« تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر» أنه بني إمارته على قوتين:« قوة رغبة وقوة رهبة، إلا أن القوة الأولى كانت هي المعول عليها ولذا كان الأكثر من سكان البلاد يطيعونه بإخلاص ووداد »(عمار، ع. د.ت:302).

لقد حدد الأمير أولويات العمل للمقاومة عند تأسيس دولته الوطنية وحصرها فيما يلي(العربي، م. 2006: 150):

1 -توحيد الجزائريين حول مبدأ الجهاد لنصرة الإسلام والوطن.

2 -تطهير الجبهة الجزائرية من الخونة والمتخاذلين.

3 -مواجهة الاستعمار الفرنسي والصليبي الظالم.

4 -التضييق على الفرنسيين في الجزائر لحملهم على الاعتراف بسيادة الجزائر وأميرها قائدًا.

5 -رفع المظالم على الجزائريين كمصادرة أملاكهم من طرف فرنسا.

6 -تحقيق رسالة الإسلام في الجزائر، عدلاً وتسامحًا وتنمية بين الجزائريين وجميع الأديان.

فسعى لإنشاء دولة وطنية إسلامية، لها جيشها وعملتها وعلمائها وسيادتها، لقيت الدعم من الأشقاء والأصدقاء.

قامت دولة الأمير الوطنية في ظروف ثورة شعبية عارمة بسبب ظلم الاستعمار الفرنسي وطغيانه واعتمدت على مبادئ واضحة منها:

-اعتماد راية وطنية وشعار رسمي للدولة وعملة وطنية.

-تشكيل مجلس شوري.

-تقسيم إداري إلى ثماني ولايات في إقليم الدولة .

-إقامة جهاز قضائي إسلامي.

-اعتماد ميزانية للدولة تقوم على الضرائب والزكاة.

-إقامة صناعة فسكرية للدولة لتحقيق الاكتفاء الذاتي.

-تنمية وطنية، اقتصادية وفلاحية وصناعية.

-تدعيم السياسة الخارجية للدولة الجزائرية مع أعضاء المجتمع الدولي(العربي، م.2006: 100).

فبتاريخ ديسمبر1839 نادى الأمير بالجهاد، وقامت الحرب أربع سنين ثبت فيها الأمير الثبات الذي خلد له الذكر، فكانت الحرب بينه وبين فرنسا سجال بين كر وفر، حتى تاريخ ديسمبر 1847 سلم نفسه للفرنسيين بعد مشاورة أصحابه، ولما قرر الاستسلام أرسل إلى الجنرال«لمور سيار» رئيس الجيوش الفرنسية رسولاً من حاشيته ليخبره باستسلامه، فلما وصل إلى الجنرال اهتز سرورًا وبادر بورقة ختمها بختمه على بياض، وأرسلها مع الرسول ليشترط فيها الأمير ما يريد وبعث معه سيفه، واشترط سلامته وسلامة أسرته ووزراءه، واتفق أن يخرج بأسرته إلى عكا والإسكندرية، وأن يكون كل من بقي في البلاد آمنًا على حياته وماله(نزار، أ. 1994: 13) .

أن المؤرخ المنصف ليقف موقف إجلال وحيرة أمام هذه القدرة العجيبة والعبقرية الفذة التي جعلت الأمير الشاب«ينظم دولة ويحسن تنظيمها ويدون

دواوينها ويضبط أمورها ويصك النقود ويربط لها علاقات متينة مع الخارج وينشر دعايتها ويكتسب لها الأنصار» (أحمد، ت. د.ت: 86).

وخير شهادة سجلها الأعداء عن الأمير للمؤرخ الفرنسي اوغستان برنار: «وقد أظهر الأمير بعد أن أُسند له منصب الأمير، على الرغم من أنه ابن الزوايا والطرق، حنكة سياسية وبراعة عسكرية فائقة، وكان يتمتع بصفات تدل على أنه خُلِق ليحكم، فكان بسيطًا في لباسه،ومتواضعًا في معاشرته، أنيقًا جميلاً، شجاعًا فارسًا،وبالتالي كان له هدوء الدبلوماسي المسلم، وسكينه ولباقته، وكان متدينًا عن إخلاصه، ولم يطلب الإمارة لإشباع أطماع نفسه، بل ليقود أمته نحو طريق الفلاح، فأدرك أهمية الدولة وبكل تفاصيلها، من النظام والجباية وتنظيم الجيش، وكان أبرز وأجل أعدائنا بالجزائر » (إحسان، ح. 1961: 75).

ب - سفره إلى دمشق وموقفه من الأحداث الطائفية:

وصل الأمير إلى فرنسا وحُول هو رفقائه إلى قلعة (لامالاق) أحس أميرنا أنه خُدِعَ من طرف فرنسا، فسلم أمره إلى الله الذي يعلمُ ما ستحملُه الأيام القادمة، وبدأت فرنسا تساومه على بقاءه بها مع حاشية وأُبهة، فأبى الأمير ذلك طالًا الوفاء بالعهود وترحيله إلى عكا أو الإسكندرية، وهكذا توالت الأيام حتى جاءت زيارة (البرنس نابليون) له بالسجن ووعده بإخلاء سبيله، شرطَ أن لا يفكر في العودة للجزائر أبدًا أو الجهاد، «محاولاً إنقاذ الشرف القومي الذي طال تلطيخه بإخلاف الوعد سيطرت على عقله فوق الاعتبارات الأخرى » (شارل، .هـ. ت. 1982: 265)، وكان نص وعده:« إنني جئت لأقسم لك بالله العظيم وبكل الرسل والأنبياء أن لا أفعل شيئًا يتنافى مع الثقة التي وضعتها في، وأن ألتزم بالقسم التزاما دينيًا بأني لا أعود للجزائر أبدًا » (شارل .هـ. ت. 1982: 265)، وبعد أن

قام الأمير بجولات مختلفة في فرنسا غادرها إلى الشرق بتاريخ (13/12 /1952) وهكذا بدأت رحلته إلى دمشق.

وصل الأمير لبلاد الأتراك ولكم لم يشعر بالراحة وظل يشده الحنين لوطنه فغادرها ليصل إلى الشام بلاد بني أمية، وأُصدرت الأوامر لوالي دمشق ليُحسن استقباله وضيافته بدمشق، فدبت روح العلم والمعرفة في نفس الأمير وعكف على الكتابة والقراءة والتدريس بين العلماء والفقهاء، فحرص الأمير على شراء دارًا وخصصها للعلم وأسماها دار الحديث(محمد، س. 1984: 80).

عاش الأمير حياة مليئة بالعلم والتدريس والعبادة في دمشق بكل امن وراحة يرعى أبناءه، ويمدّ يد المساعدة لكل محتاج، ولم يكدر صفو هذه الحياة الهادئة سوى الأحداث الطائفية الكبرى التي وقعت بين (الدروز والموارنة) بعد أربع سنوات من استقرار الأمير بدمشق .

تعود جذور الفتنة إلى عوامل داخلية وخارجية، تداخل فيها التاريخ بالجغرافيا والموروث الديني المتشدد مع الحداثة، والقوى المحلية من تجار وأعيان وأغوات مع القناصل الأجانب ودولهم، وكان لاسترضاء الدول الأجنبية من طرف الدولة العثمانية جانبًا كبيرًا في خلق عدم المساواة بين الرعايا سواء بالعرق أو الدين أو اللغة، بتأكيد الامتيازات للطوائف غير الإسلامية، وتأكيد الحرية الدينية المذهبية، وإنشاء المحاكم المختلطة، وحق الملكية للأجنبي(عوض، ع. 1969: 20، 28).

يكاد يتفق الكتاب والمؤرخون لهذه الأحداث على أن الأقدار لعبت دورًا هامًا في حماية مسيحي الشام عن طريق الموقف الإسلامي النبيل الذي فعله الأمير، إذ أدرك أطماع فرنسا وانجلترا في توزيع تركة الرجل المريض بحجة الدفاع عن الرعايا والأقليات المسيحية(ظاهر، م. 1988: 467)، ويشير بعض الباحثين أن

فرنسا وانجلترا تبادلتا التهم حول من تقف وراء هذه الفتنة بين انجلترا التي لم تتعرض قنصليتها للهجوم بالأحداث وبين فرنس التي كانت تريد شق الطريق إلى قناة السويس وبين محاولة سيطرتها على سوق الحرير التي بات المسيحيين يسيطرون عليها في دمشق وتمكنوا من مجاراة تطور الحرير البولادية في الحي المسيحي، في محاولة لنقلها لفرنسا أو مستعمرتها الجزائر.

انطلقت شرارة الفتنة يوم الاثنين(10 جوان1860) أشعل فتيلها طفل صغير، فامتد لهيبها لتصير مذبحة، بالرغم عن اشتغال الأمير بالتدريس والتعليم ومسؤولياته الكثيرة بعيدًا عن الحكم والحكام، إلا أنه سرعان ما اهتم بالمجازر التي تحدث وتحرق كل شيء، وتشير العديد من الوثائق والشواهد التاريخية عن مرسلات الأمير للقنصليات والحكام لأجل وقف لهيب الحرب:« غير أن سعادة الأمير المعظم والكبير المفخم بذل كامل همته في ذلك » (البيطار، ع. 1993: 264)، فكانت مراسلاته للوالي التركي«أحمد باشا»: «تصامم الوالي ولم يحرك ساكنًا لأنه كان يجهل ما يحدث في الأحياء بين الجماعات من أحاديث تنم عن العداء للنصارى الذين اضطهدوا المسلمين في جبل لبنان » (يحي، ب. 1964 :81).

ويشهد التاريخ بقنوط المسيحيين من شراسة الأتراك وحقد المسلمين وكل هذه الأوضاع ...، ولكن قُدر لهم أن يكون بين المسلمين أنفسهم رجل يحقن دماءهم ويصون أعراضهم، فما كان من الأمير عبد القادر إلا أن اجتمع بالوالي مرات عدة وأعيان المدينة وحثهم على الهدوء وإقرار السلام وترك النصارى وشأنهم:«أظهر لهم عدم جواز قتل المسيحيين شرعًا ودينًا وأفرغ قصارى جهده في إرجاعهم للهدى والصواب ولم يتركهم حتى استوثق منهم بالوعود وإجابة طلبه » (ميخائيل، م. 1908: 174)، مما يجعله يقر بسماحة الدين الإسلامي وقدسيته

وتسامحه مع الآخرين وأنه ضد العنف، فقال:« هذا ما كنا نحاذر ونحذر منه الناس قد وقع وإن لله راجعون» (محمد ، ع. 1964: 633).

كما دعا أهل الدروز ومسؤوليهم أن يتحلوا بروح المسؤولية وأن يكونوا رحماء مع أتباعهم، مستخدمًا خبرته وتجربته في تعاطيه مع القبائل التي كانت تخرج إليه، محذرًا بالعواقب التي ستكون يومًا ما مع الحكومة والقطيعة معها أو حتى استخدام السلاح، وكأنه الوعي بالذات لدى هؤلاء العرب المسلمين قد قضى على الوعي بالآخر والتسامح معه.

وجدت هذه الفتنة من يزكيها بسعي سفهاء دمشق بإرسال المساعدة للقضاء على النصارى فنادى الأمير خارج أسوار المدينة مما جعلهم يسمعون كلامه ولا يحركون ساكنًا (محمد ، ع. 1964 :93)، ففي هذه الأثناء محاولته المتكررة مع الوالي لم الأمير بُدًا من أن يتحرك هو الأهالي من المغاربة الذين هم تحت رايته في العلم، من أن يجندهم في الأحياء المسحية ليردوا المهاجمين وأن يدعوهم للتعقل وحقن الدماء، وفتح بيته للفارين من النصارى وبيوت جيرانه الأقربين، واستمرت الفتنة أربعة عشر يومًا، ومساعي الأمير لا تنتهي حتى أنه كان يجلس على سجادة في دهليزه ولا يهجع من الليل إلا قليلاً.

وهكذا بدأت الحركة التجارية والطمأنينة تدب من جديد في الأحياء النصرانية ابتداءً من اليوم السابع والثامن، وعاد أصحاب الأعمال إلى أشغالهم (ميخائيل، م. 1908 :175) فهذه القدرة على استشراف والقراءة العميقة لمختلف الظروف الاجتماعية جعلت الأمير ليس مجرد داعية، وإنما قوة فاعلة في إخماد الفتنة.

ج - تسامحه الديني مع المسيحيين أيام الفتنة:

مع بداية الفتنة بتاريخ (9ماي1860) هرع المغاربة للأمير يخبرونه بهول الأمر وإشعال فتيل المذابح الطائفية، فأخذ أتباعه واتجه نحو محلة النصارى، وفي طريقه وجد جماعة من الغوغاء مع عدد كبير من أهل الدروز، فما كان منه إلا أن أغلق الطريق في وجههم وخطب فيهم وسعى لذكر محاسن الدين المتسامحة مع أهل الكتاب، ومحذرًا من بشاعة الجريمة التي يقدمون عليها، ولكنهم صرخوا فيه قائلين:« ماذا؟ أنت الذي كنت أعظم ذباح للمسحيين تأتي لتمنعنا من ذبحهم في مدينتنا ابتعد عنا ؟ فصرخ فيهم كنت قد ذبحت المسحيين وفقًا لتعاليم ديننا لأنهم أعلنوا الحرب ضدنا وهم مدججين بالسلاح »(محمد، ع. 1964 :93).

وهو نفس الوضع الذي تكرر في دير العازرية إذ احتمى المسيحيين مع الرهبان لعدة ساعات ودافعوا عن أنفسهم حتى جاءهم المدد من الأمير، فقام بإجلائهم إلى بيته، محاولاً حفظ أنفس البشر (ميخائيل، م. 1908 :175).

ويشهد من سجلوا للمذبحة أنه لولا أهل الفضل الصلاح وأصحاب المروءة كالأمير الخطير الذي ضاع صيته في الأفاق ...، الذي كان يطوف المدينة ليلا نهارا برجاله وينادي : «يا أمة الإسلام لا يجوز ذلك في ديننا اعدلوا يا أهل محمد » (ميخائيل، م. 1908: 174)، فعج بيته بالنصارى وبات رجاله يتجولون في المدينة بحثا من المذعورين من النصارى ليؤويهم ببيت الأمير، وما كان من القطاع والغوغاء باليوم الثالث إلا أن نشروا أوامرهم في المدينة أنه من يأوي نصراني سوف يقتل وتهاجم عائلته وبيته ،وتنهب أملاكه فما كان من الناس إلا الاستسلام (ميخائيل، م. 1908 :177)، إلا موقف الأمير كان ثابتًا دون رجعة.

بنفس اليوم اجتمع الغوغاء مع أهل محلة الصالحية أمام بيت الأمير يطالبون بالنصارى الذين ببيته، فخرج إليهم ورجاله المغاربة، واستل سيفه وقال: «أيها الملعونون ؟ هل بهذه الطريقة تشرفون النبي، صبّ الله لعنته عليكم، عار

عليكم ...إنني لن أسلمكم مسيحي واحد، إنهم إخوتي، فتقهقروا وإلا أمرت رجالي بإطلاق النار » (شارل، هـ. ت. 1982 :285)، طلب الأمير من الوالي «أحمد باشا» : أن يرسلهم للقلعة ولكن صراخ نساء النصارى وأطفالهم على بالمكان خوفًا على أرواحهم من الأتراك، فتعهد الأمير بأن يلازمهم بالقلعة ويقوم على شؤونهم بنفسه ففصل النساء عن الرجال، وحفظ مقامات الناس في المعاملة، وبين عامتهم وخاصتهم من أصحاب المراتب والقناصل، ما عدا القنصلية البريطانية التي كانت محمية من طرف رجال الباشا، حتى الأيام الأخيرة سمع أحد الحرس الذي يتقن التركية أن القنصلية سيتم الهجوم عليها، فما كان من القنصل البريطاني إلا أن بعث في طلب الأمير بأن يقوم رجاله مكان الفرقة التركية فلبا طلبه، وأرسل من يقوم على ذلك(شارل، هـ. ت ،1982 :286).

فهذه الصفحات المؤلمة والدامية السوداء في تاريخ دمشق، كانت ناصعة البياض بتاريخ الأمير عبد القادر، وكانت فرصة جديدة للدولة العثمانية لتحكم قبضها على أراضيها، قبل أن يصل الأسطول الفرنسي باسم المسيحية الشرقية إلى ميناء بيروت لتسوية الأمر، فأُلقي القبض على كل من كان له يد في المذابح من قريب آو بعيد، وشُكلت لجنة مؤلفة من الدمشقيين معروفين من المسيحيين والمسلمين لتحديد الخسائر وتعويض أهل باب توما المسيحي(محمد، ع. 1964: 93،94).

هذا الدور الكبير للأمير والذي كتمه في نفسه فإن دل فيدل على نكران الذات والإيمان العميق بعدالة الرسالة التي يحملها، وما كان الأمير ليتبجح بما حققه من حقن للدماء، فنهال على الأمير التكريم والتمجيد لما حققه فالسيف الذي أشهر في وجه فرنسا لدفاع عن قضيته العادلة هو نفسه سيف العدل الذي أشهره ليدافع عن نصارى الشام وسكانها، فلسانه الذي كان رطبًا لنصرة

المظلومين والمستضعفين في ساحات مدينة دمشق هو نفسه الذي ينادي بحجة الإسلام المتسامحة والتي تنم عن غزارة علمه وتمكنه من دينه.

بلغته التكريمات العديدة ورسائل الشكر والتقدير على تسامحه الديني مع النصارى ونصرتهم بالشام من طرف قيصر روسيا وملك بروسيا والحكومة الفرنسة وبعثت له ملكة بريطانيا بندقية كتب على صندوقها :« من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة إلى صاحب السمو ..تذكارًا للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق 1960 »(محمد ، ع. 1964 :98).

فالناظر في تاريخ الأمير يدرك مدى اتصاله برجال كنيسة (مادلين) بباريس(1852) تنم عن التواصل الديني بين الشعوب والذي هو قديم قدم الرسالة المحمدية التي كرسه أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» عند دخوله بيت لحم منذ إحدى عشرة قرنًا من قبل ،مما يدل على سماحة الإسلام وتسامحه مع أهل الكتاب واحترام الآخر المخالف لنا في الدين والعرق واللغة، فالمتأمل لتسامحه حتى مع رجال الدين الذين كانوا بالجزائر أثناء المقاومة يدرك تسامحه وتعايشه مع الآخر، حين صرح أنه تبين غلطه عندما كان يعتبر المسيحيين شعوب بلا دين فالكنائس ستقنع الناظر لها بوجود دين لهم .

يمكننا في الأخير أن نؤكد:

أنه ما من مؤرخ يتناول الجزائر في عصورها الحديثة إلا وأشاد ببطولات الأمير عبد القادر وما حققه من بناء لدولته، وما من مؤرخ يسجل تاريخ الشام المعاصرة إلا وينوه به وما تركه من مآثر واضحة في حياة الشام وما حوله من مناحيها العلمية والسياسية والاجتماعية خلال إقامته بالشام.

وأن التسامح من طبع الأمير سواء في أثناء المقاومة وحتى بعد رحيله خارج الجزائر وهذا ما تؤكده الشواهد التاريخية من كنيسة مادلين أو فتنة الشام أو

الجمعية الماسونية ..وما أحوجنا اليوم للأمير ليشهد مجازر ومذابح تقترف باسم الدين سواء الإرهاب أو قتل الأقليات المسلمة بسراجيفوا أو بورما وغيرها كثير ... هذه الكلية تدرك تمامًا لطبيعة الخطاب الغوغائي السائد فهو نفس الخطاب الذي نشهده اليوم في القدرة على تجيش العامة في اتجاهات لاعقلانية بتحريك النبرة العصبية والدينية.

فشخصيته تنم عن استشراف المستقبل والقادم من خلال خبرته وتجربته، وحنكته التي لعبت الدور الأكبر في التخفيف من الأحداث الطائفية بالشام، مما جعله من الشخصيات العالمية التي أرست قواعد التسامح الديني بقرن كامل حتى قبل أن يرسخ له يومًا عالميًا من طرف الأمم المتحدة، وسعى للحد من العنف الطائفي، فهذا الحضور المميز لهذه الشخصية الوطنية والإنسانية ببلاد الشام لم تتوقع فرنسا أبدًا، هو نفس الحضور الذي خلده بسيفه أثناء المقاومة الشعبية بالجزائر، ويشهد له بحسن التدبير والحكمة وبعد النظر ونشر التسامح والتفاهم بين الشعوب والقبائل، ونشر العلم والثقافة، وكل هذه الحكمة والمزايا بشخصه نابعة من الدين الإسلامي والأخلاق العربية النبيلة التي تدعوا لمعاشرة الآخر بالحسنى.

قائمة المصادر والمراجع :

❖**القرآن الكريم برواية ورش.**

-أباظة نزار، (1994). **الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد**، ط1، دمشق: دار الفكر.

-إبراهيم أفندي عربيلي، (مارس1913). شاهد عيان(مذبحة دمشق 1860)، **مجلة الكلمة**، نيويورك، العدد:3.

-ابراهيم مياسي، (2007). **من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر**، د. ط، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

-ابن منظور، (1303هـ). **لسان العرب**، ط1، مصر: المطبعة الميرية، الجزء 7.

-إحسان حقي، (1961). **الجزائر العربية أرض الكفاح المجيدة**، د. ط، بيروت: منشورات المكتب التجاري.

-أحمد رضا، **(1960). متن اللغة العربية**، د. ط، بيروت: دار مكتبة الحياة، المجلد 4.

-أشو، (2011). **التسامح رؤية جديدة تزهر الحياة**، تر: علي حداد، ط، 1بيروت: دار الخيال.

-البيطار عبد الرزاق، **(1993). حلية البشر في القرن13، ط2، بيروت: دار صادر.**

-الحايك ميشال، (1961). **المسيح في الإسلام**، ط4، بيروت: دار النهار.

-السيد الوزير محمد، (1984). **الأمير عبد القادر ثقافته وأثرها في أدبه**، ط1، مصر: مكتبة الملك فيصل الإسلامية.

-أنطونيا نسايز، مارثا ميناو، (2006). **تخيل التعايش معًا تجديد الإنسانية بعد الصراع الإثني**، تر: فؤاد السروجي، د. ط، عمان: دار الأهلية للنشر والتوزيع.

-بن سبع عبد الرزاق، (2000). **الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه**، مؤسسة آل سعود للإبداع الشعري.

-بوعزيز يحي، (1964). **الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري**، ط2، دمشق: مطابع الفكر.

-توفيق المدني أحمد، (د.ت). **هذه هي الجزائر**، ط1، مصر: مكتبة النهضة المصرية.

-جوزيف لوكيلر، (2009). **تاريخ التسامح في عصر الإصلاح**، تر: جورج سليمان، د. ط، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

-حرب أديب، (1983). **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر**، الجزائر: الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، ج2.

-رضا أحمد، (1959). **متن اللغة العربية**، بيروت: دار مكتبة الحياة، المجلد: 3.

-رمضان توفيق رمضان، (د. ت). **الثقافة وآثارها على التنمية في مواجهة تحديات التي تواجه العالم الإسلامي**، د. ط، القاهرة: مكتبة المدبولي.

-زيدان جرجس، (1910). **تراجم مشاهير الشرق**، ط2، مصر، ج1.

-صيام زكريا، (1964). **ديوان الأمير عبد القادر**، تحقيق: ممدوح حقي، ط3.

-ظاهر مسعود، (1988). **الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني**، ط 1.

-عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، (2010). **تاريخ الجزائر العام**، د. ط، الجزائر: دار الأمة، ج4.

-عبد الوهاب الكيالي، (د. ت). **موسوعة السياسة**، د. ط، بيروت: دار الهدى، ج 1.

-عمار، (د. ت). **الجزائر بوابة التاريخ (ما قبل التاريخ إلي 1962)**، د. ط، الجزائر: دار المعرفة، ج1.

-عوض عبد العزيز، (1969). **الإدارة العثمانية في ولاية سوريا**، ط1، مصر: دار المعارف.

-فوزي فاضل الزفزاف، (2008). التعايش السلمي الايجابي البناء في مجتمع متعدد، **مجلة التواصل**، الجزائر: جامعة باجي مختار، العدد: 17.

-مجمع اللغة العربية، (1998). **المعجم الوسيط**، ط3، القاهرة: دار الفكر، ج2.

-محمد ابن عبد القادر، (1964). **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر**، تحقيق: ممدوح حقي، ط3، بيروت: دار اليقظة العربية.

-مشاقة ميخائيل، (1908). **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**، ط1، القاهرة.

-منور العربي، **(2006). تاريخ المقاومة الوطنية في القرن 19، الجزائر: دار المعرفة.**

-وهبة مراد، (2007). **المعجم الفلسفي**، د. ط، مصر: دار قباء الحديثة.